يرفدهم فكر اجتماعي واحد ذو مضمون سياسي تقدمي . وهم فوق ذلك مرغمون على التمسك بشخصيتهم الوطنية التي تجابه — يوميا — مؤامرات السحق والمحو والتدمير . ومن صور التمسك بهذه الشخصية المحافظة على كل ما هو متميز فيها ولها . فاذا اصبح هذا سلوكا يوميا للكاتب ، وهو في النهاية سلوك يرمي للكتاب المذكورين، كان من المحتم ان ينعكس على ابداعاتهم الفنية . فيحملها على الانسياق ضمن مجرى واحد. ويصبح التفاوت والاختلاف مقصورا على مدى التفاوت والاختلاف في الحساسية الادبية لديهم ، وهكذا وجدنا اميل حبيبي مثلا اقدر على كتابة الرواية من غيره . وهو اقدر على السخرية من سواه . وفي المقابل يكاد يكون محمد علي طه افضل من يحلل الشخصية من الداخل ، وسلط الاضواء على اللحظة القصصية المكثفة بابعادها الزمانية والمكانية . والى جانب هذين الاعتبارين نجد خليل السواحري مثلا اقدرهما على الرواية البانورامية التي تقدم صورة تسجيلية لواقع فسيح عبر فترات متفاوتة ، وضمن محور اهتمام واحد ... من خلال نماذج قصصية قصيرة تشكل وحدة كاملة .

قصدت من هذه المقدمة ان تكون مدخلا لمراجعة قصص محمد علي طه التي ضمتها مجموعته القصصية الثالثة جسر على النهر الحزين . وكان الكاتب الذي ولد في قرية ميعار الجليلية التي محت سلطات الاحتلال اثارها من الوجود ، قد اصدر مجموعتين قصصيتين هما : « لكي تشرق الشمس » وظهرت عن طبعة الحكيم في الناصرة سنة ١٩٦٤ ثم « سلاما وتحية » . التي صدرت سنة ١٩٦٩ عن دار الجليل في عكا ، وتأتي هذه المجموعة كما يقول الناشر « دار عربسك » لتؤكد بعمق كبير انجازات محمد علي طه في مجال الفن القصصي بمضامينه الانسانية التقدمية ؛ وتقنيته الفنية العالية . ان قصص جسر على النهر الحزين التي تبلغ عددها اربع عشرة قصة تؤكد ما سبق ان توهنا به من سمات وخصائص تميز التيار الفلسطيني في القصة الطويلة والقصيرة،رغم ما فيها من استثناءات جرت الكاتب اليها قراءاته ومطالعاته في الاقصوصة العربية فجنح فيها الى الرمز والايماء والاسطورة ، وتردى احيانا في اللبس والغموض والابهام .

تتناول قصة « اللجنة » وهي الاولى في قصص المجموعة موضوعا اجتماعيا طبقيا ، دون الابتعاد عن المشكلة الاساسية هي مأساة الاقلية العربية فيما يطلق عليه زورا وبهتانا اسم « اسرائيل » . فالمختار في القصة يمثل طبقة الوجهاء التي اعتادت التعاون مع العدو حفاظا على مصالحها ومكاسبها الاقتصادية والاجتماعية . فهو لا يمثل الحكومة فقط وانما يقوم مقام الذراع الذي تستخدمه في غرض سياستها على الاوساط العربية . وهو ، ايضا ، يعتمد على السلطة الممثلة في الشاويش « حاييم » وموظف ضريبة الدخل « سالم » لاقتلاع بذور التمرد لدى شباب الريف الفلسطيني . وتهديدهم ان هم تخلوا عنه وعن جماعته في الانتخابات البلدية وما شابه .

وقد نجح القاص في تصوير قطبي الصراع : المختار بقوته المستمدة من السلطة ، ومجموعة المسلمات . ثم قوة ابن رباح احد الشبان المنحدرين من الطبقة الكادحة ، ونال ثقافة جعلته يسعى لمنافسة المختار .

ومن خلال التفاصيل الصغيرة ، والجزئيات العديدة ، تمكن الكاتب من شحننا باحساس التفاؤل بانتصار الفئة الشابة ، كما استطاع ان يشحننا بمشاعر الكره والحقد على المختار واضرابه من المستغلين الجشعين ، الذين لا يريدون التنازل عن مراكزهم القيادية ، حتى وان اقتنعوا ان في هذا التنازل فائدة للجميع .

ولعل حنكة القاص وذكاءه يبدوان في النهاية الجيدة للقصة ، فهو رغم انتصار ابن رباح والشباب على المختار لم يجعله يسلم بسهولة ، بل ما يزال يتحين الفرص لكي يستعيد مركزه بواسطة الدس والخديعة والمكر . على ان هذه الحركة الذكية في القصة لا تشكل مضمونها الخاص والعام بل انه يسلط الاضواء من خلال السرد التفصيلي على ابعاد القضية الاجتماعية في الريف، وهي مواجهة الفلاحين لمصاعب الحياة والاضطهاد بثقة وقوة وامل .

وقريب من هذا الموضوع ما تتناوله قصته « المعركة » . وتنبغي الاشارة الى ان موضوع الانتخابات البرلمانية في الكيان الاسرائيلي يكتسب اهمية خاصة في الادبيات العربية هناك ، اذ من